الأفراح في مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير

« صفحة من تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين »

د/عبد المنعم إبراهيم الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

obeikan.com

obeikan.com

الأفراح في مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير

« صفحة من تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين »

على الرغم مما اتسمت به الحياة الاجتماعية في مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من إيقاع شرقي يتميز بالثبات والاستقرار والبطء في التغيير ، ومع أن الشعب المصري يعد من أكثر شعوب العالم تمسكًا بعاداته وتقاليده وتراثه فإن ما حدث في السنوات الأخيرة من متغيرات حضارية مثل زيادة نسبة التعليم بين الإناث والذكور ، ومثل ما أدخلته وسائل المدنية الحديثة من أجهزة ووسائل اتصالات وفضائيات ، قد هز الكثير من هذه الأوضاع واستطاع النفاذ خلف ستار التقاليد السميك ؛ مما أدى إلى ذبول بعض العادات القديمة المتوارثة ، واستبدالها بعادات جديدة وافدة ، ومن هذه العادات ما يحدث حاليًا في تقاليد الزواج والأفراح ، فبعد أن كان المصريون يزوجون أولادهم في سن مبكرة ، إذ لا يكاد الفتى يبلغ الحلم حتى تبحث له أسرته عن بنت الحلال ، فإنه بعد انتشار التعليم بين الإناث والذكور لم تعد فكرة الزواج المبكر مطروحة إلا نادرًا ، وبعد أن كان المصريون يتمسكون بضرورة زواج الأقارب فقد توقفوا عن ذلك بعد أن ثبتت أضراره طبيًا خاصة إنجاب الأطفال ، وبعد أن كان الأهل يتحكمون في اختيار زوجة الابن التي كانت تختار له أحيانًا منذ الطفولة ، فقد أصبح هذا الاختيار من حق العروس والعريس معًا ، وبعد أن كان زواج أحد أبناء البلدة أو الحي أمرًا يخص أبناء الحي جميعًا لا الأسرة وحدها ، فقد اقتصر أمر عقد معظم حفلات الزفاف على الفنادق والأندية بعد أن ضاقت البيوت عن استقبال المدعوين .

وبعد أن كانت هناك ضرورة لحضور البلانة مع العروس في ليلة زفافها فقد تلاشت مثل هذه العادة التقليدية ، وبعد أن كانت الخيَّاطة من الشخصيات التي يتردد قدومها على بيت العروس لاختيار تفصيلة فستان الزفاف ، فإن عادة شراء ثوب الزفاف جاهزًا

أصبحت معروفة ، وبعد أن كانت الصديقات والقريبات يقمن بدور تجميل العروس وتزيينها أصبح الكوافير الآن يؤدي نفس هذا الدور ، وبعد أن كان توزيع علب الحلوى وأكواب الشربات الأحمر القاني وسط هرج وضجيج الأطفال من العادات المألوفة في الأفراح فقد اندثرت هذه العادة ، ولم يعد لها مكان، خاصة في الفنادق التي لا يدعى إليها الأطفال طبقًا لأنظمتها المتبعة .

وفيما يلي نعرض لعادات وتقاليد المصريين في الزواج ابتداء من الخطبة وحتى الزفاف منذ أن شاهدها المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين[1]، وأخته صوفيا[2] ، خلال عصر محمد علي حيث كان القديم الموروث لا يزال قائمًا وكانت مصر لا تزال تنسب إلى مجتمعات العصور الوسطى في الكثير من مناحي حياتها . ثم ما طرأ على ذلك من مستحدثات وتغيُّرات في عهد خلفاء محمد علي حتى نصل إلى ما هي عليه الآن.

أولاً : مرحلة الخطوبة :

تحدث لين عن الخاطبة ودورها في مهمة البحث عن العروس ، فذكر أنها كانت تحترف مهنة الدلالة التي تبيع الحلي والملابس النسائية حتى يسهل عليها الدخول إلى قلاع

---

(1) زار لين مصر ثلاث مرات ، كانت الأولى في أواخر عام 1825م ، وكان وقتذاك شابًا في الرابعة والعشرين من عمره جاء ليدرس حضارة قدماء المصريين ، ولكن القاهرة التي استولت على لبه وشعبها الذي شغف بالعيش معه جعله يرى أن دراسة الأحياء أمتع له وألذ من دراسة تاريخ الأموات مما صرفه عن قدماء المصريين إلى الكتابة عن أحفادهم . واستمر لين بمصر ثلاث سنوات يدرس حياة الناس كما يدرس اللغة العربية حتى تملك ناصيتها كتابة ومحادثة ، وبعدها عاد إلى إنجلترا فى أواخر عام 1828 بعد أن درس الحياة في القاهرة دراسة مستوفاة ، وجمع في مخطوطاته مسودة كتابه الذي صدر بعنوان The Manners and Customs of the Modern Egyptians ورغبة من لين في الاستزادة ببعض المعلومات عاد إلى مصر في عام 1833 حتى يسد بعض الثغرات في كتابه ، ولما رجع إلى إنجلترا أصدر هذا الكتاب . أما الزيارة الثالثة فكانت في عام 1842 وكان هدفها الإعداد لمعجم عربي شامل . للتفاصيل انظر : نجيب العقيقي : المستشرقون ، جـ2 ، ص 480 .

(2) صحبت أخاها إدوارد خلال زيارته لمصر ، ولها دراسة عن الجوانب والأسرار الخفية من أمور الحريم في أسرة محمد علي وغيرها تفوق في غزارتها أي مصدر آخر ، ويتضح ذلك من كتابها الذي ظهرت طبعته الأولى في عام 1844 تحت عنوان : The English Woman In Egypt قامت الدكتورة عزة كرارة بترجمته في عام 1999 ، تحت عنوان : حريم محمد علي باشا .

الحريم ، ومساعدة الرجال في اختيار العروس الملائمة نظير أجر كمعلوم ، وكانت العادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع الخاطبة لزيارة عدة بيوت ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن ، ويفهم الطرف الآخر طبعًا القصد من الزيارة ، ولكن إذا سمعن أن من بين نساء المنزل فتاة تتحلى بالصفات المطلوبة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن عن أحوال الفتاة التي يقع عليها الاختيار وعما تملكه من حال أو متاع .

ولما كان غير متبع خلال هذه الفترة رؤية أسرة الخاطب من النساء للعروس إلا بعد زفافها فقد كانت الخاطبة غالبًا هي مصدرهم ، في وصف الفتيات ، التي كثيرًا ما تبالغ في وصفهن ، وإلى جانب ذلك فقد كانت الخاطبة تبالغ لدى أسرة الفتاة في وصف الشاب الراغب في الزواج بما ليس فيه أحيانًا فتصفه بلطف المعاشرة والأناقة والثراء وحب الترف والكرم ، والرغبة في الملاطفة والدلال حتى تتمكن من الحصول على موافقة العروس وأسرتها ، وبعد أن تستعلم الزائرات عن أحوال العروس يقدمن تقريرهن إلى الراغب في الزواج ، فإذا رضي بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ، ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته[3] .

واستمرت هذه الأمور على حالها حتى أوائل القرن العشرين تقريبًا ، حيث بدأ بعضها في التغير ، فقد اتسع دور الخاطبة ، وازدادت معرفتها بأخبار الفتيات الراغبات في الزواج حيث كانت تزور البيوت وتتصل بالأمهات وتسأل عن الشابات في سن الزواج ، وتتعرف أخبارها وتقف على رأي الأم في الزوج الذي تبتغيه لابنتها إذا ما سهل الله لها بابن الحلال ، وكانت الأم تؤكد على الخاطبة أن تكثر في التردد عليها وتوعدها بأنها ستعطيها ما تريد من المال إذا جاءت لابنتها بالعريس المنشود ، وبعد ذلك تذهب الخاطبة إلى منازل الأسر التي بها شباب يريدون الزواج ، وتكون واسطة بين أهل الزوج والزوجة في تعريف هؤلاء بأولئك ، وكانت أحيانًا تبالغ في وصف حال الفتاة وأصلها فتقول مثلاً إن لها وجهًا مدورًا كالصينية، وعيونها عيون الغزلان ، وفمها خاتم سليمان وصدرها بيض نعام، وأنفها مثل النبقة ، وأسنانها لؤلؤ ، وإنها إذا تكلمت تناثر اللؤلؤ من بين

(3) إدوارد لين : المرجع السابق ، ص 100 .

شفتيها[4] ، وزيادة في تشجيع الشباب على التقدم لخطبتها تذكر أن الكثيرين تقدموا لها ، ولم يوفقوا لأنهم لم يكونوا أكفاء لها ، وهكذا كانت المفاوضات الأولية تجري مع الدلالة ، ورويدًا رويدًا تطورت الأمور ، وأصبحت أسرة العريس تبعث ببعض نسائها لتسأل وتبحث وتعاين أوصاف العروس المرتجاة بدلاً من الخاطبة ، فيذكر فكري أباظة أنه كان يتم تحديد موعد الزيارة وتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدي أبدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح[5] ، وبعد أن تصل أسرة العريس وتشرب القهوة أو الشربات يتم استدعاء العروس فتقبل وهي تتهادى خجلاً وتجلس بأدب واحتشام، ثم يأتي دور البحث والفحص والتجريب[6]، فتشرع أم العريس أو إحدى قريباته في الحديث مع العروس ، وخلال ذلك تحدق في أسنانها لترى إن كان بها عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون ، ومن الحديث تستنتج خفة الروح أو ثقل الدم ، وتعرف نوع الصوت إن كان ناعمًا أو خشنًا أو غليظًا[7] ، وقد تخرج إحدى قريبات العريس سيجارتها وتطلب من العروس برفق أن تشعل عود الكبريت فتتقدم لتلمح قوامها وقدها ، ثم تطلب منها الاقتراب لتشعل عودًا آخر ، كي تتسع لها الفرصة لتحدث في عينيها عن قرب ، وربما تطبطب على صدرها لتلمس ثدييها ببراعة وإحكام[8] ، ثم يتم إبلاغ العريس بالتفاصيل بعد ذلك ، فإذا اقتنع بما سمعه تقدم للزواج من غير أن ينظرها ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها وإنما ذلك كله بعد الزفاف[9] .

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات فقد كان العريس ينخدع أحيانًا بالأوصاف التي تنقل له عن العروس ، ومن الأمثلة على ذلك قصة زواج شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فعلى الرغم من اختيار زوجة خاله للعروس وتصديقه للأوصاف التي خلعتها على

(4) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص 205 .
(5) فكري أباظة : الضاحك الباكي ، ص 147 .
(6) محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين ، ص 316 .
(7) فكري أباظة : المرجع السابق ، ص 149 .
(8) نفسه ، ص 149 .
(9) عامر العقاد : أحمد أمين حياته وأدبه ، ص ص 40 ، 41 .

عروسه المقبلة واستسلامه لمراسم عقد الزواج ، فقد أحس حافظ بفجيعته في نفسه عندما تطلع إلى عروسه ، ولم يرقه منظرها ، بل أوجد أنفها الضخم رهبة في نفسه مما جعله يخفق في تجربة الحياة الزوجية ، ولم يعد إلى تجربة الزواج طيلة حياته[10] .

ومعنى ذلك أن الخاطبة أو الأسرة هي التي كانت تختار العروس ولم يكن لأي من الخطيبين رأي في إتمام ما يحدث ، فلا العريس رأى العروس قبل أن يخطبها ولا هي رأته أو كلمته قبل ذلك بل كانا غالبًا لا يعرفان شيئًا عن بعضهما إلا ما ترويه الخاطبة أو الأسرة فقط ، خاصة وأن الانفصال الحديدي بين الجنسين كان يحيط الفتاة بالغموض فهي تحت حجابها الذي يغطي جمال وجهها أو قبحه لا يراها العريس إلى أن تصبح في حوزته ، مما أوجد في العديد من الأحيان حدوث نفور بين الزوجين عند مكاشفة بعضهما للبعض في ليلة الزفاف[11] ، خاصة عندما يصاب الرجل بخيبة أمل في رؤية الجمال المنتظر في فتاة أحلامه فيجدها عكس ذلك مما زاد من عملية تعدد الزوجات .

وعلى أي حال فقبل أن توافق أسرة العروس على خطبة ابنتهم للعريس المنتظر كانت تتم التحريات عنه ، وعن أسرته وعن سلوكه وماليته وغير ذلك ، وربما يسألون عنه في قسم الشرطة التابع له . وقد تستمر التحريات ثلاثة أشهر أو يزيد حتى يصدر القرار بالموافقة ثم يجيء دور الكلام عن المهر والشبكة ، وإذا وافق الطرفان على شروط بعضهما يسمح للخطيب بالتردد على منزل أسرة العروس ، ومقابلة رب الأسرة وزوجته ، وتقديم الدبلة والشبكة وسط إجراءات ورسميات ومراسم .

ونتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على مصر خلال السنوات الأخيرة وفي غمار الحراك الاجتماعي السريع الذي طرأ على المجتمع المصري بدأت الأمور تتغير[12] ، فقد تلاشت هذه الصور تدريجيًا ، فالعصر الحالي الذي نعيشه يشهد تطورًا حضاريًا سريعًا في كافة مناحي الحياة ، كما بدأت النواحي الاجتماعية في

---

(10) محمد كامل جمعة : حافظ إبراهيم ، ص ص 51 ، 52 .

(11) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، جـ 1 ، ص 73 .

(12) جلال أمين : ماذا حدث للمصريين – تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945 – 1995 ، ص48 .

مختلف مضامينها وأساليبها تصاغ صياغة جديدة ، فأخذت تظهر عادات وتقاليد جديدة أدت إلى ذبول العادات والتقاليد القديمة ، وخرجت المرأة إلى الحياة العامة وبدأت الارتباطات بين الآباء والأبناء تتغير ، وأخذت البنات تطالب بمزيد من التحرر بشكل قد لا تستسيغه عقلية الأب أو الأم ، ولم يعد ثمة ما يحول بين مقابلة الفتى للفتاة قبل الزواج والاتفاق على كل شيء قبل أن يعرف الأهل أي شيء عن هذا الاتفاق ، ثم تبلغ الأسرة بعد ذلك بتفاصيل ما جرى .

والسؤال المطروح هو هل كان نظام الخطبة واحدًا عند كافة الطبقات في مصر؟

الواقع أن هذا النظام كان متبعًا لدى الكافة ، فهو عند أبناء الباشوات والذوات مثله عند الطبقة الوسطى والعامة ، وإن دور الخاطبة كان متبعًا في أفراح أبناء الباشوات والذوات مثلما كان متبعًا لدى العامة ، وإلى جانب ذلك فإن عدم السماح برؤية العريس لعروسه ولا لأحد من أفراد أسرته من السيدات إلا بعد زفافها[13] كان متبعًا داخل قصور الأسرة الحاكمة ، كما كان سائدًا عند العامة ، هذا إلى جانب أن أفراد الطبقة الراقية كانوا يفضلون الزواج المبكر والزواج من الأقارب خاصة أبناء الأعمام كما كان يفعل أفراد العامة الذين كانوا يرغبون في ذلك بحجة التماسك الاجتماعي للأسر ، وكما أنه لم يكن لبنات العامة الحق في اختيار الزوج فإن ذلك كان متبعًا لدى الأميرات ، إذ لم يكن لهن الحق في اختيار أزواجهن ، كما أن الزوج كان لا يختار زوجته عن عاطفة حب متبادلة أو لتوافق في الطباع أو الأفكار[14] ، بل كانت أحيانًا المنفعة هي التي تقود بعض الأسر لاختيار الزوجات ، يضاف إلى ذلك أن تمسك الأسر بخطبة الابنة الكبرى قبل الصغرى إذا تقدم أحد لخطبتها كان موجودًا سواء عند الأغنياء أو العامة إلى أن تغير ذلك في الوقت الحالي.

---

(13) يذكر أحمد شفيق باشا أن إحدى الأسر عدلت عن الموافقة على زواجه من ابنتها بمجرد أن طلبت أمه رؤية العروس قبل خطبتها . انظر : مذكراتي في نصف قرن ، جـ 1 ، ص 73 .

(14) علماء الحملة الفرنسية : موسوعة وصف مصر ، المصريون المحدثون ، جـ1 ، ترجمة زهير الشايب، ص 80 .

ثانيًا : مرحلة عقد القران :

يذكر لين أنه بعد أن يتم اختيار الخاطب لعروسه يذهب بعض أقاربه لمقابلة وكيل العروس ، للاتفاق معه على مقدار المهر[15] ، وكثيرًا ما تحدث المساومة في تحديد المهر عند العامة خاصة المؤخر منه إلى أن يتم الاتفاق ، ثم يحدد بعد ذلك عقد الزواج الذي يسمى كتب الكتاب[16] . وبعد أن يتم اجتماع المدعوين يذهب العريس مع بعض أصدقائه إلى منزل العروس ويحضر المأذون ثم يتم عقد الزواج بشهادة شاهدين ، وأخذ موافقة العروس ، ثم يقرأ الحاضرون الفاتحة ، ويدفع العريس مقدم المهر ويعقد بعد ذلك العقد فيجلس العريس أمام وكيل العروس ، ثم يمسك كل منهما يمنى الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثاني ويتولى أحد الفقهاء تلقين الطرفين صيغة العقد ، فيضع على اليدين المتماسكتين منديلاً[17] ، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والأدعية وبعض الآيات والأحاديث التي تشير إلى فضل الزواج ومزاياه ، ثم يطلب من الوكيل أن يقول : أزوجك ابنتي أو (موكلتي) فلانة (ويسمى العروس) العذراء البالغة إذا لم تكن قد تزوجت من قبل ، أو الثيب إذا كان قد تكرر زواجها ، بمهر قدره كذا ، ثم يطلب من العريس أن يقول : أقبل زواجها وآخذها تحت رعايتي وأتكفل بحمايتها ، واشهدوا على ذلك أيها الحاضرون ، ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة فيجيبه الأخير في كل مرة بما سبق ، وحينئذ يقول كلاهما : « والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين » ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة .

وخلال ذلك تجلس العروس في أبهى زينتها ، وخلفها الصبايا بالزغاريد تنطلق، وقد وضعت قدميها في وعاء به نعناع أخضر كما تضع في فمها قطعة من السكر ، ثم ترسل هذه

---

(15) اختلف مهر الثيب عن مهر الفتاة العذراء ، فهو يقدر غالبًا بربع مهر العذراء أو ثلثه أو نصفه ، كما أنها لا تزف عند الزواج ، ويكفي أن تقول المرأة لمن يتقدم لزواجها : «وهبت لك نفسي» فتصبح امرأته شرعًا متى كانت بالغة حتى من دون شهادة .

انظر لين : المصريون المحدثون ، ص 111 ، 112 .

(16) قلما كانت توجد وثيقة مكتوبة تثبت الزواج في ذلك الوقت .

(17) يحدث أحيانًا أن يخطف أحد المدعوين المنديل للاحتفاظ به وأحيانًا يتمكن المأذون من أخذه.

القطعة إلى الزوج ليرسل بدلاً منها مبلغًا من النقود هدية لعروسه دلالة على الانسجام المنتظر في حياتهما الزوجية ، كما تضع على رأسها المصحف الشريف مفتوحًا على سورة يس، وزيادة في البهجة والفرح تضرب الدفوف والطبل البلدي والمزمار وتزغرد النساء وينثر الملح على العروس خشية الحسد ، ويظهر الجدعان والفتوات من أهل الحارة أمثال المعلم شلبي والأسطى حنفي وزعيط الفلاح وصغار الموظفين من أقارب العروسين أمام الشوارع والطرقات المسدودة وهم يشعلون مصابيح من الورق ويتبارون بالنبابيت والعصي (لعبة التحطيب) ويلعبون بالجريد والسيوف ويضربون البارود[18] ، ويسير بعضهم على عكاكيز حديدية مرتفعة ، ويزينون رؤوسهم بالريش ويتضاربون بالعصي الطويلة ، بينما يجلس بعضهم القرفصاء أمام منازلهم المبنية بالطوب اللبن والصفيح أو على أقفاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية مثل البوظة وعرق البلح ويتعاطى البعض منهم الحشيش والأدخنة وهم يستمعون إلى قصص أبي زيد الهلالي وعنترة وإلى الأمثال العامية ، كما يشاهد الصبية ألعاب خيال الظل والقراقوز وغيرها ، وتطل النساء من فوق أسطح المنازل لمشاهدة ما يحدث وهن فرحات مستبشرات للعريس والعروس بعقد قران سعيد ، هذا عن مراسم عقد القران عند العامة ، فماذا عند أبناء الباشوات والذوات ؟

والواقع أن بنات الذوات كن كبنات العامة لا يؤخذ رأيهن في اختيار العريس المنتظر ، فالفتاة تنشأ وتربى في انتظار اليوم الذي يسلمها فيه والدها إلى كنف زوج غريب عنها في شخصه وطريقة تفكيره[19] ، أما عن الاختلاف بين أفراح الذوات والعامة فينحصر في لوازم الفرح ، والأموال الفلكية التي يدفعها الذوات للمهر كرمز للمباهاة والتفاخر .

وفي حضور أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء والأعيان وتقديم أفخم المأكولات والمشروبات لهم واستبدال المأذون بشيخ الجامع الأزهر الذي يتهيأ لكتابة العقد

---

(18) حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دار الوثائق : الداخلية عربي أوامر (1) أمر كريم بتاريخ 12 رمضان 1275هـ (1859م) ، وانظر أيضًا دفتر أنظمة ولوائح رقم 1891، ص 54 وثيقة رقم (9) بشأن منع ضرب البارود واللعب بالجريد والنبوت والبنادق والسيف والرمح في الأفراح والمواسم بالقرى .

(19) صوفيا لين : حريم محمد علي ، ص 186 .

فيوفد الشهود يتقدمهم الأغوات إلى باب حجرة العروس المسدول عليه ستار من الحرير الأزرق المُوَشَّى بالذهب حتى يحجب ما وراءه ، ويسألونها الموافقة على الزواج من الأمير فلان أو الوجيه فلان ويرددون عليها السؤال مرات إلى أن تجيب العروس بالقبول في تمنع وحياء . وفي أعقاب ذلك ينصرف الشهود لإبلاغ شيخ الأزهر صيغة الجواب فيبدأ في التصديق على العقد ، وبعدها ترتفع الزغاريد ، وتقدم أكواب الشربات في أقداح من الذهب ، وتوزع الشيلان والحلوى والعطايا والهدايا الفاخرة على جميع الحاضرين[20] .

ومن أبرز أفراح أنجال الباشوات التي تتردد في التاريخ وما حدث فيها من بذخ وألعاب وفرق عسكرية تعزف العديد من الألحان وراقصين وراقصات وعروض وتمثيليات ، وتوزيع مرطبات ومأكولات وكساوى وهدايا ، نذكر ما حدث في أفراح إسماعيل باشا[21] ، ابن محمد علي ، ومحمد بيك الدفتردار على نظلة هانم ابنة الباشا[22] ، وكامل باشا[23] على زينب هانم صغرى بنات الوالي ، وشقيقة أحمد باشا ابن عم محمد علي على مختار بك الذي أتم تعليمه في باريس[24] . وكما نذكر ما حدث خلال أفراح أنجال إسماعيل باشا الأربعة حيث عاشت مصر خلاله أيامها الأربعين في احتفالات فخمة وإسراف أسطوري لم ترَ مثله في عصرها الحديث ، والتي ذكرت الناس بليالي ألف ليلة وليلة ، وباحتفالات قطر الندى ابنة خمارويه ، ففي حفل مهيب عقد الخديو إسماعيل قران أولاده الثلاثة وإحدى بناته في وقت واحد إذ عقد لولي عهده

---

(20) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، جـ 1 ، ص 70 .

(21) قتل في شندي بالسودان حرقًا على أثر مؤامرة دبرها له الملك نمر الذي دعاه وبطانته إلى وليمة بقصره في شندي وكان من القش ، فأجابوا دعوته وذهبوا إلى القصر ورحب بهم الملك ترحيبًا عظيمًا ، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر ويشعلوا النار فيه . وقد حاصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته ولم يستطيعوا الإفلات من الموت .
للتفاصيل : انظر الرافعي : عصر محمد علي ، ص 166 ، 167 .

(22) للتفاصيل انظر : عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ 4 ، القاهرة ، المطبعة الشرقية، 1322هـ ، تحت عنوان : ثم دخلت سنة تسع وعشرين مائتين وألف ، ص 211 .

(23) عمل ياورًا وسكرتيرًا خاصًا لمحمد علي ، وأنعم عليه السلطان برتبة الباشوية بعد أن رشح ليكون زوجًا لابنة والي مصر . انظر : صوفيا لين : حريم محمد علي ، ص 280 .

(24) صوفيا لين : المرجع السابق ، ص 268 – 279 .

توفيق على الأميرة أمينة هانم بنت إلهامي باشا ، وللأمير حسين كامل على الأميرة عين الحياة بنت الأمير أحمد رفعت ، وللأمير حسن على خديجة هانم بنت الأمير محمد علي ، كما زوج ابنته الأميرة فاطمة الزهراء للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا[25] .

وإلى جانب ذلك فهناك فروق عديدة بين أفراح الباشوات والعامة ففي حين كان يدعى لإحياء أفراح أبناء الباشوات كبار الموسيقيين المشهورين ، ويدفع لهم المبالغ الكائلة مقابل إحيائهم لهذه الحفلات ، فإن أنجال العامة كانوا لا يدفعون أجرًا للموسيقيين والمهرجين والراقصين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقوط والمساهمة في إحياء الفرح.

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بما لديهم من مال وعقار فإن أهل العروس من العامة كانوا لا ينظرون إلى ذلك بل إلى حسن سمعة العريس وأخلاقه ودينه ، ومعاملته مع الناس ، كما أن أهل العريس ، كانوا يفضلون البنت التي يعرفون عن أمها حسن العشرة مع زوجها تمسكًا بالمثل الذي يقول اكسر البصلة وشمها تطلع البنت لامها ، و "خذ بنت الحلال ولا تأخذ بنت المال" .

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بنسبهم التركي ومصاهرة العثمانلي فإن أبناء العامة كانوا يفضلون ابن البلد على الأجنبي حتى أن بعضهم كان يغالي في هذا فلا يزوج ابنته إلا لأحد من أبناء قريته ، كما كانوا يفضلون صاحب الصنعة الذي يعيش من عرق جبينه فيقولون : « الصنعة خاتم ذهب بيد صاحبها » .

وبينما كان العريس من أبناء الباشوات يقدم لعروسه هدية الشبكة مرصعة بالذهب والجواهر ، كما يقدم المهر الذي يتباهى به أسر الذوات ، فقد كان العريس من أبناء العامة يقدم ما يتلاءم مع قدراته وإمكاناته فقد تكون هديته عقدًا من الخرز أو أسورة من الزجاج الملون وشيئًا من الأقمشة الرخيصة التي يتخذ منها نساء الريف ثيابهن .

---

(25) للتفاصيل انظر : بحثنا المعنون أفراح أنجال الباشا المنشور في مجلة الهلال ، العدد سبتمبر 2002 ، ص56 – 65 .

وبينما كانت الهدايا المقدمة لأنجال الذوات والأمراء والكبراء تمثل صورة من الحياة الطبقية الصارخة التي كانت تعيش فيها مصر في ذلك الوقت ، والتي توضح التنافس الصارخ بين الثراء والترف الذي يعيشه أبناء الحكام وحالات الضنك والبؤس والحرمان التي يعيشها عامة الشعب ، فهدايا طبقة الحكام كانت عبارة عن مجوهرات وقلائد وماس، أما هدايا الأهالي لأبناء جلدتهم من العامة فكانت لا تزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والإوز[26] .

وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التي تناولها ضيوف أفراح الباشوات من صحون المحمر والكباب والكفتة فإن ضيوف أفراح العامة كانوا لا يتناولون سوى العدس أو البيسارة أو الفول بالإضافة إلى المش أو الجبن أو الفجل أو المخلل والجميز ، أما شرابهم فكان عرق البلح والبوظة ، وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم في قصور الباشوات فإن العامة كانوا لا يعرفون طريقة استخدامها ، بل يجلسون القرفصاء على الأرض ويستعملون أصابعهم حيث إنها أسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها ، وبينما كانت الأميرات ومعظم المدعوات يرتدين الملابس الإفرنجية الفخمة التي جلبت خصيصًا من أشهر محلات الأزياء في أوروبا[27] ، ويلبسن القلائد الذهبية والمجوهرات المرتفعة الثمن ، وينثرن العملات الذهبية والفضية على الحاضرات فإن بنات العامة كن يلبسن الملابس البلدية البسيطة وينثر عليهم الحاضرات من أقاربهن الشعير والملح لدرء عين الحسود وجلب البركة ، وبينما كانت أفراح أبناء الباشوات لا تقتصر على ليلة واحدة ، بل كانت تتعدد الليالي قبل ليلة الزفاف ، اقتصرت أفراح أبناء العامة في أغلب الأحيان على ليلة واحدة أو أكثر بقليل .

وبينما كانت بنات الباشوات يحصلن على لقب الهانم (الخانم) والبرنسيسة أو الأميرة فإن بنات العامة كن يحملن غالبًا أسماء حفيظة وست الدار ونفيسة ونعناعة وخضرة وشلبية .

---

(26) إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون ، ص 104 .

(27) أحمد شفيق : مذكراتي ، جـ 1 ، ص 72 .

وبينما سمح لبعض الأميرات أن تكون العصمة في أيديهن ، لتختار الطلاق من زوجها متى شاءت[28] ، فإنه كان من العيب على بنات العامة أو الطبقة الوسطى أن يتحدثن في هذا الموضوع أو يفكرن فيه أو حتى يستحسن سماعه . حقيقة أن زوجة رفاعة الطهطاوي وابنة خاله كريمة الأنصاري اشترطت عليه ألا يتزوج عليها ، وقد فرض رفاعة على نفسه أمام زوجته أن يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيًا كانت ، فإن تزوج بأخرى كانت زوجته طالقة بالثلاثة ، ولكن هذا لا يعني أن زوجة رفاعة كان بيدها العصمة ، بل كان من شروطها على زوجها ألا يقترن بغيرها[29] .

وبينما عاشت الأميرات في قصور فخمة بنيت لهن خصيصًا فقد عاشت بنات العامة في بيوت من الطين أو بيوت أكل عليها الدهر وشرب، وسكن بعضهن الخيام، وكل جهازها كان عبارة عن صندوق للملابس وكرسي ومنضدة ، وطشت وصينية وإبريق وربما لحاف ووسادتين . وهكذا يتضح لنا الفروق الطبقية الصارخة في الزواج لدى أبناء الخاصة والعامة .

ثالثًا : ليلة الدخلة :

بعد الاتفاق على موعد ليلة الدخلة ينقل الأثاث والمفروشات من بيت العروس إلى بيت العريس ، كما تذهب العروس ليلة الدخلة إلى الحمام في صحبة قريباتها وصديقاتها وعن

---

(28) انظر على سبيل المثال إذن عقد زواج عطية الله هانم بنت عباس حلمي باشا . محافظ أبحاث : محفظة 149 ملف تراجم البراءات التركية الواردة للديوان قبل نوفمبر 1914 .

(29) نص عقد هذا الاتفاق كما يلي :

« التزم كاتب الأحرف رفاعة بدوي رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلي الأنصاري أنه يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى أو جارية أيًا ما كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من النساء ، أو تمتع بجارية أخرى فإذا تزوج بزوجة أيًا ما كانت ، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة » . دار المحفوظات . ملف رفاعة بدوي رافع الطهطاوي وثيقة محررة بخط يده وموقعة منه ومختومة بخاتمه في شوال 1255هـ ، ومن المعروف أنه كان يمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات بالإضافة لأي عدد من الإماء يستطيع إطعامه ، وهذا التعدد كان أكثر شيوعًا عند الطبقات الشعبية .

محجبات وسط مظاهر الفرح ، ويسمى ذلك زفة الحمام فيتقدم الزفة غالبًا فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع ، وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير ، ويوجد أيضًا سقاء يروي ظمأ السائرين ، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقمًا مملوءًا بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر ، ويحمل الآخر مبخرة يحرق فيها البخور[30].

وعندما يصل الموكب في نهاية المطاف إلى الحمام فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملأ المباخر بالبخور الطيب الرائحة ، وتراق العطور بسخاء وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضي اليوم في مرح وبهجة ، وتقدم خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى[31] .

وبعد الاستحمام تعود العروس إلى منزل أهلها وتتناول مع رفيقاتها العشاء وسط جو من الطرب والأغاني ، وبعد ذلك تعجن بعض الحناء ، وتضع العروس قطعة من العجين في يدها ثم تتناول النقوط من ضيفاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة على تلك العجينة فتأخذها العروس ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها ، وتربطها بالكتان حتى الصباح فتصبغ بلون أحمر برتقالي ، وتسمى هذه الليلة «ليلة الحنة» . وفي نفس الوقت يقيم العريس حفلاً لتسلية المدعوين[32] .

وفي اليوم التالي تزف العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة[33] ، وتضاء الشوارع أو الحي الذي يسكنه العريس بالمشاعل والفوانيس والقناديل الصغيرة ، ويعلق بعضها في حبال تمتد من منزل العريس إلى المنازل المقابلة على جانبي الشارع ، وتعلق أيضًا مع القناديل رايات حريرية ذات لونين أحمر وأخضر . وتؤخذ العروس إلى بيت زوجها في العادة عند الغروب ، وكثيرًا ما تحمل في هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير ، ومحمل على جملين زينت أعناقهما بقلائد حرير وأجراس مختلفة في رقابهما ، يسير أحدهما خلف

(30) لين : مرجع سابق ، ص 104 ، 105 .

(31) موسوعة وصف مصر : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 82 .

(32) لين : مرجع سابق ، ص 106 ، 107 .

(33) إدوارد لين : المرجع السابق ، ص 102 .

الآخر[34] ، وأحيانًا تسير العروس على قدميها وعلى جانبها امرأتان وأطفال الجيران الذين يشاركون في الهرج والمرج[35] ، وتصحب العروس بعض صديقاتها معها ، وتطلق كثير من النساء الزغاريد وهن يسرن في ملابسهن الزرقاء[36] ، ويصدرن أصواتًا تعبر عن فرحهن وسط ضجيج كبير من الآلاتية الذين يدقون الطبول وينفخون المزامير[37] ، وتسمى هذه الزفة «زفة العروسة» وقد يتبارز أمام الزفة فلاحان بالنبوت ، كما يعرض بعض الحواة حيلهم ، وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية يتم غمس قدمها اليمنى ويدها اليمنى في اللبن تفاؤلاً باليمن والبركة وأن يكون مقدمها منزل الزوجية مقرونًا بالخير والنماء ، ومن العادات الشائعة لدى البعض أيضًا أن تقوم صديقات العروس غير المتزوجات اللاتي يصطحبنها بقرصها في ركبتها اعتقادًا منهن أن ذلك سوف يؤدي إلى حصولهن على زوج في القريب العاجل ، كما يقوم أصدقاء العريس غير المتزوجين بقرصه بنفس الطريقة على أمل أن تكون لهم عروس مستقبلاً .

أما عن العريس فكان غالبًا لا يفوته الذهاب إلى الحمام بصحبة بعض أصدقائه حيث يقوم بإبلاغ رغبته إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذي يرغب أن يذهب فيه إلى هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة[38] ، وبعد ذلك كانت تقام له زفة تسمى زفة العريس حيث يلبس عادة قفطانًا به خطوط حمراء وجبة حمراء ويتوجه إلى المسجد مصحوبًا بفرقة طبالين وزمارين وبعض حاملي المشاعل ، وبعد أداء الصلاة تعود الزفة من المسجد حيث يزف العريس بالدف وبالموشحات والأوراد كما يشرع المغنون في الغناء ، ثم يعود العريس إلى غرفة عروسه حيث يراها لأول مرة ومعها البلانة وحدها فيمنح البلانة عند دخول الغرفة منحة فتنسحب في الحال ، وتترك له العروس وهي مغطية رأسها بشال

---

(34) نفسه ، ص 18 .

(35) صوفيا لين : حريم محمد علي ، ص 63 .

(36) وينيفريد بلاكمان : الناس في صعيد مصر – العادات والتقاليد ، ص 81 .

(37) صوفيا لين : حريم محمد علي ، ص 63 .

(38) علماء الحملة الفرنسية : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 84 .

لا يرفعه العريس قبل أن يهبها هبة مالية تسمى «كشف الوش»[39] ، ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بنقابها ويسمي باسم الله[40] ، وقد يسعد العريس عندما يرى أن وجه زوجته كما وصف له ، وقد يشعر بأنه قد حدثت له خديعة وبحس بالفجيعة في نفسه إذا كان الأمر غير ذلك[41] ، ويكون نتيجة ذلك القطيعة التامة وذهاب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها[42] .

ومن العادات المتبعة وقتذاك تقديم الدليل على بكارة الزوجات للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك دليلاً هامًا على عفة الزوجة[43] .

والسؤال المطروح هو هل كانت هناك شروط يتم الالتزام بها من حيث حسب ونسب كل من العروسين ؟

الواقع أنه من الأمور التي كانت متبعة في حالات الزواج وقتذاك ضرورة أهلية الزوج وكفاءته الاجتماعية من ناحية النسب والوظيفة بالنسبة للزوجة وأسرتها وقصة زواج الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد ورئيس حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية من صفية السادات بنت الحسب والنسب والتي أقامت مصر وأقعدتها في أوائل القرن العشرين ، كانت صدمة عنيفة للتقاليد الموروثة الخاصة بالبيوتات العريقة في ذلك الوقت . ومرجع ذلك أن الشيخ علي يوسف ذلك الرجل العصامي أراد أن يقترن

---

(39) لين : المرجع السابق ، ص 110 .

(40) علماء الحملة الفرنسية : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 84 .

(41) تذكر صوفيا لين أنها سمعت أن شابًا كان قد خطب لنفسه فتاة بناء على تزكية من صديق له ، ثم علم بعد ذلك أنها عوراء وذات منظر كئيب ولا تصلح أن تكون زوجة له ، ولما حاول التأكد من ذلك طلب من أسرة العروس إرسال والدته لرؤيتها قبل الزواج فاشترطوا عليه في نظير ذلك أن يتنازل عن أمواله وأملاكه للعروس قبل أن يسمح لوالدته برؤيتها على أن تجلس في غرفة مظلمة حتى لا يسهل على أحد معرفة إن كانت العروس تبصر بعين واحدة أو باثنتين .

انظر : حريم محمد علي ، ص 143 .

(42) علماء الحملة الفرنسية : موسوعة وصف مصر ، جـ 1 ، ص 81 .

(43) كان يمارس هذا السلوك عامة الشعب والأقباط ، أما البكوات وكبار الشخصيات والذين حصلوا على قدر من التعليم فقد هجروا هذه العادة . علماء الحملة الفرنسية ، مصدر سابق، جـ 1، ص83.

بزوجة ذات حسب ونسب ، وقد هداه تفكيره إلى أن يطلب يد صفية صغرى بنات الشيخ السادات والتي رآها خلال تردده على أبيها أثناء عمله كصحفي ، وعلى الرغم من موافقة صفية على هذا الزواج فقد رفضه والدها مما دفع صفية إلى الالتجاء لخالها ، حيث تم عقد قرانها هناك ، ولما علم والدها بالأمر رفع دعوى أمام المحكمة الشرعية طالبًا التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج حيث إنه لا ينتسب إلى نسب رفيع مثله ، كما أنه يعمل جورنالجي وهي مهنة لم تكن موضع تقدير في ذلك الوقت حيث يقوم كما ذكر الشيخ السادات في صحيفة دعواه على الجاسوسية وبث الشائعات وكشف أسرار خلق الله ، وبعد أن نظرت المحكمة القضية في 24 يوليو 1904 أصدرت حكمها بالحيلولة بين الزوجين ، ولكن صفية رفضت طلب المحكمة مما أدى إلى إحداث أزمة وانقسام للرأي العام في مصر إلى قسمين : الأغلبية وعلى رأسهم الزعيم الوطني مصطفى كامل وقفت ضد هذا الزواج ، أما الفريق الآخر وعلى رأسه الخديو عباس الثاني فقد كان يساند الشيخ علي يوسف[44] .

هذا عن طقوس ليلة الدخلة لدى العامة فماذا كانت عليه عند أبناء الباشوات والذوات ؟ كان يندر أن تذهب بنات الباشوات إلى الحمام العمومي قبل الزواج لوجود الحمام في منازلهن[45] ، بل كان يسبق ليلة الدخلة نقل جهاز العروس وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر والتحف إلى منزل العريس وسط زفة عبر الشوارع[46] ، تتقدمها جوقة موسيقية وألعاب بهلوانية ، وكان يتبع هؤلاء عربات المدعوين واثنا عشر جملاً على كل منها هودج مغطى بقماش قرمزي وبه مجموعة من الأعلام الصغيرة كما في مواكب الكسوة والمحمل ، وكان هناك عدد من السقائين لتوزيع الماء على المتفرجين . وكانت الهدايا توضع في أسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس ، هذا عدا الأواني الذهبية والفضية وفناجين القهوة

(44) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في العصر الحديث ، ص 122 – 125.
(45) لين : المصريون المحدثون ، ص 111 .
(46) الجبرتي : عجائب الآثار ، جـ 4 ، مرجع سبق ذكره ، ص 214 .

بزخرفتها الذهبية المحلاة بالجواهر وفصوص الماس والياقوت ، وكان جهاز العروس يطاف به في كل المدينة تتقدمه فرقة موسيقية[47] ، وخلال ذلك كانت الشوارع وشرفات المنازل التي يمر بها الموكب تزدحم بالأهالي والمارة للفرجة عليه ، وبالنسبة لحفل ليلة الدخلة فقد كانت العروس تزف في بدلتها المرصعة بالماس وعلى رأسها التاج الهرمي الذي يتألق بالفصوص البراقة ويصطف الأغوات صفين ، وبيد كل منهم شمعدانات ضخمة تضيء شموعها كل ما حولها ، وبين هذين الصفين تسير العروس في أبهى حلل العرس حيث تنضبط دقات الدفوف النحاسية والطبول على وقع خطواتها . وعندما تصل إلى غرفة العرش (الكوشة) تجلس على مقعد عال فوق مجموعة مرتفعة من الوسائد المطرزة. بالساتان الوردي تنثر وابلاً من العملات الذهبية والفضية على الجموع وكذلك بارات فضية مخلوط معها شعير وملح لدرء عين الحسود[48] ، كما تظهر بعض المغنيات والراقصات وقد ارتدين ثيابًا حريرية مخططة ووضعن على رءوسهن طرابيش ذات أقراص مذهبة ، وازدانت ضفائرهن بالنقود المذهبة ، وطليت وجوههن بالمساحيق الحمراء والزرقاء ، بينما ظهر البعض الآخر وقد أسدلن على وجوههن غطاء خفيفًا ، وهن يسترسلن في الرقص والغناء الجماعي الذي يتحدث عن جمال العروس ودلالها مما جعلها فريدة العصر ، بينما كانت الدفوف النحاسية وصاجات الأيدي والطبول تصاحبهن في الأداء ، ويسير خلف هؤلاء صفان من الأغوات وهم يحملون الصناديق والسلال التي تتألق فيها الهدايا المقدمة للعروس والتي يتنافس الأمراء والأعيان وذوو الحيثيات على التباهي بتقديمها[49] .

---

(47) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، جـ 1 ، ص 71 .

(48) صوفيا لين : المرجع السابق ، ص 282 .

(49) يذكر الجبرتي في وصف حفل زفاف نظلة هانم ما قدم لها من الهدايا والأمتعة وأن هذه الهدايا كانت تعرض على أم العروس أولاً فإن أعجبتها تركتها وإلا أمرت بردها قائلة هذا مقام فلانة ، فتتكلف صاحبة الهدية بزيادتها مع ما يلحقها من كسر الخاطر .

انظر : عجائب الآثار ، جـ 4 ، (المحرم 1229هـ / ديسمبر 1812م) .

وبعد نهاية الحفل تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه إلى غرفتها الخصوصية مثقلة بما ترتديه من ذهب ومجوهرات تساندها أربع جوارٍ .. وفي عصر اليوم التالي ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراي زوجها من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقات العسكرية ، ويتم خلالها تزيين الحوانيت والطرق التي تمر عليها زفة العروس وهدم مساطب الدكاكين وغيرها لتوسعة الشوارع ثم رشها بالماء[50] ، كما يتنافس أصحاب الحرف في المشاركة في هذه المهرجانات بالتفنن في إعداد المواكب التي يبرزون فيها أعمالهم والتي كانت بمثابة معرض متنقل يمثل الحياة الصناعية والإنتاجية في البلاد كما تقوم الجوقات الموسيقية بعزف ألحانها وتقديم أغانيها ، بينما يقوم آخرون بحمل شجيرات مزدانة بأكاليل الزهور والتيجان ومزخرفة بالشموع المضاءة والكرات الملونة البراقة ، هذا إلى جانب اللوحات العريضة من النحاس المذهب المرفوعة على أقواس ، وخلف هؤلاء يسير المدعوُّون من النساء المرتديات أجمل الثياب يرددن مقاطع بعض الأغاني .

وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية ، يسمح للعريس أن يرى وجه زوجته في المساء المتأخر لأول مرة[51] .

هذا عن طقوس الزواج عند المسلمين ، أما بالنسبة للأقباط فإن الأمر لا يختلف كثيرًا، بل ينحصر الاختلاف في إقامة قداس الزواج الذي يتم مساء في الكنيسة حيث يرتدي كلا

---

(50) وصف الجبرتي حفل زفاف نظلة هانم على محمد بك الدفتردار وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر ، كما وصف موكب زفافها في وسط المدينة وما حدث له فقال : «أطبق الجو بالغيم وأمطرت السماء مطرًا غزيرًا حتى تبحرت الطرق وتوحلت الأرض وابتلت الخلائق من النساء والرجال المجتمعين للفرجة .. وتكدرت طباعهم وانتقضت أوضاعهم وزادت وساوسهم وتلفت ملابسهم .. ولم تصل العروس إلى دارها إلا قبيل دنو الشمس من غروبها . انظر عجائب الآثار ، جـ 4 ، ص 215 .

(51) أكدت ذلك صوفيا لين التي حضرت زفاف زينب هانم ابنة محمد علي على كامل باشا فذكرت أن العريس لم ير وجه عروسه إلا في المساء المتأخر ، وأنه بعد أن أزاح الحجاب عن وجه عروسه تقهقر إلى الوراء يمعن النظر فيها مدة دقيقة حيث كان يتهيأ لتأملها لأول مرة .
انظر : حريم محمد علي ، ص 321 .

العروسين ملابس جديدة في هذه المناسبة ، ويسير الرجال إلى الكنيسة حاملين الشموع والمصابيح بينما تطلق النساء الزغاريد ، وبعد أن يوجه القس كلامه للعروسين ويتبادلا خاتمي الخطبة يقوم أحد الحاضرين للتحدث لمجاملة العروسين فيقارن العروس مثلاً بالقمر والعريس بالشمس ، وقد يحذو آخرون حذو هذا الرجل ، وبعد انتهاء هذه المراسم، تذهب العروس في طريقها لمنزل العريس[52] .

وبالنسبة لزواج اليهود المصريين فقد جرت العادة على تزويج الفتاة في سن مبكرة ، وكانت عملية الارتباط بين الرجل والمرأة تمر بثلاث مراحل هي التعارف والخطبة ثم الزواج ، وخلال فترة التعارف كان والد العروس يعقد ولائم ضخمة ، وكان يتم في إطار ذلك التوقيع على السند الخاص بمرحلة التعارف ، وعقب ذلك الحفل كان يحق للعريس أن يلتقي مع الفتاة المتعارف عليها في أوقات متقاربة ، وبالنسبة للخطبة فكان يلزمها توافر ثلاثة شروط هي أن تتم بموافقة الحاخام وفي حضور عشرة أشخاص يكون من بينهم كاتب المحكمة أو أحد الفقهاء ، وأن يتم التوقيع على وثيقة الخطبة . أما عن أهم شروط عقد الزواج فقد تضمنت عدم اقتران الزوج بامرأة أخرى إلا بموافقة زوجته الأولى[53] ، والتزام الزوج بالإنفاق على زوجته ، وألا يحق له التمتع بمكاسب زوجته ، وكان المهر الذي يدفعه العريس لعروسه يدون في عقد الزواج ، وكانت مراسم الزواج تصاحب عادة بعقد الولائم الضخمة ، وإقامة الاحتفالات الراقصة[54] .

إن معظم هذه العادات قد تغيرت تقريبًا في غمار الحراك الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع المصري ، فأصبحت الفتاة هي التي تختار عريسها أو توافق عليه ، وأصبحت تتمرد على محاولة الأهل تزويجها بقريب منها ، وترفض بإصرار الزواج على الطريقة التقليدية ؛ لأنها بما اكتسبته من التعليم والخبرة والتفتح العلمي والثقة بالنفس أصبحت

---

(52) وينيفريد بلاكمان : المرجع السابق ، ص 82 ، 83 .

(53) يعقوب لانداو وآخرون : تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1517 – 1914 ترجمة جمال الرفاعي وأحمد حمادة ، ص 305 .

(54) للتفاصيل انظر : رشاد رمضان عبد السلام : النشاط اليهودي في مصر 1897 – 1922 رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب أسيوط ، 2002 ، ص 258 – 376 .

لديها الجرأة على التعبير عن مشاعرها الحقيقية ، كما أصبحت مؤهلة لزواج يحقق لها الصعود في السلم الاجتماعي . يضاف إلى ذلك أن نظرة الفتاة وأسرتها في اختيار العريس قد تغيرت فبعد أن كان يفضل أن يكون موظفًا في وظيفة ميري (أي حكومية) حتى تضمن لأسرته معيشة مستقرة ومركزًا اجتماعيًّا مرموقًا تطبيقًا للمثل المصري القائل : « إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه » أصبح العريس المنشود بين الفتيات حاليًا هو الذي يملك شقة وسيارة وأموالاً ويكون شخصًا «نيولوك» New Look ولا يهم إن كان يعمل في مهنة حكومية أو غير حكومية أو كان قد نال قسطًا من التعليم أم لا .

هذا عن مواصفات العروس في اختيار شريك حياتها ، أما عن العريس فبعد أن كان يفصل الفتاة التي لا تبرح بيتها ، وتكون مسئولة عن تنسيق البيت حتى يعود من عمله فيجده مرتبًا نظيفًا ، وتهتم بتربية أطفالها والعناية بهم وتهبه جوًّا منزليًّا هادئًا يستقر فيه ، وسنين عسل يتجلى خلالها معدنها الأصيل ، أصبح همه الأكبر هو أن تكون عاملة تشاركه في نفقات المنزل وفي أعباء المعيشة وأن يكون راتبها مقبولاً ، يضاف إلى ذلك أنه بالنسبة لعادات إحياء الأفراح فبعد أن كانت الأسر الغنية تحيي أفراح أنجالها في منزلها بحفلات تحييها أم كلثوم أو عبد الوهاب ، يصر حديثو الثراء على إحياء أفراحهم في الهيلتون أو الشيراتون على أصوات «شعبولا» ورقصات «سنية شخلع» وأمثالها .

وهكذا تغير الذوق المصري في غمار الحراك الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع المصري .

ومما سبق يتضح أن أفراح الأنجال لدى المصريين عمومًا كانت تمثل سواء عند الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة هامة تبرز فيها العديد من العادات الموروثة والمستحدثة ، خاصة وأن البحث عن بنت الحلال التي تسعد زوجها ، وتريح قلبه ، وتحفظه بحسن تدبيرها ، وتكون سترًا له في الدنيا ، من الأمور التي تهفو إليها القلوب جميعًا ، وأن العصر الحاضر الذي نعيشه شهد تطورًا حضاريًّا سريعًا قلب الأمور رأسًا على عقب في كافة مناحي الحياة الاجتماعية ، وتغيرت بعض تقاليد المصريين المتوارثة وعاداتهم ، وظهرت عادات جديدة حلت مكان العادات القديمة الموروثة .

ملحـــق

إن حرص الإنسان على منافعه الذاتية العاجلة منها والآجلة حمله على أن يستبشر لخير أعوانه ونصرائه وينقبض إذا نالهم ضيم أو مسهم سوء ، فعلى هذا يكـون سرور الإنـسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمرًا طبيعيًّا لا اختيار له فيه ، فلا مجال للتنديد أو الثناء عـلى ما يختلج في الفؤاد ويظهر على الجوارح في السراء والضراء، إذ لا يعاب عـلى الإنـسان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الاختيار والإرادة، ولأجـل هـذا نجعـل كلامنـا الآن متعلقًـا باختياراته في هذين البابين ليصادف النهي والترغيب موضعًا فنقول :

ترى الناس على اختلاف مواقعهم في المديريات والأقاليم معتـادين في الأفـراح عـلى أمور كثيرة بعيدة عن الآداب ومخالفة لما جاء من أحكام الشريعة ، ولنأت على بعض ما في حافظتنا الآن منها معترفين بأنه قليل من كثير في جانـب مرتكبـاتهم التـي يـضيق صـدر المجـلة عن سـردها لأننا إذا تتبعـنا ما يفعل قبيل زفاف العروسين إلى ما بعـد الدخـول نجـد أمـورًا كـثيرة نجهـل بالحقيقـة مبدأ ظهـورها وعلة تداولها كـ (البلْصة وحل الدكة وإزالة البكارة بالإصبع وصلاة ركعتـين وقتئـذ عـلى قمـيص العـروس وأن يكـون بغـير وضوء) ويأتي بيان ذلك ببعض التفصيل .

إن أبوي البعل هما اللذان يختاران في الغالب زوجة لولدهما غير ملاحظـين في شروط انتقائها إلا أن تكون من عشيرة تعادلهم في الثـروة والـصيت أو تزيـد عـنهم فـيهما ، فـإن ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها وإن كانت خبيثة الذات قبيحة التربية ، وأكرهـوا الولـد على قبولها إن لم يتحد معهما مقصدًا ، ولا يخفى ما في ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معًا . ويدفعان من الصداق ما يرضي أبويها ولو حملهما دينًا باهظًا وكلفهما حملاً ثقيلاً . وإذا أتى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون مـن أقربـاء الزوجـة إلى منـزل الـزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغـيره (مـن غـير أن تأخـذهم شفقة بأهل المنزل وعويلهم وصراخهم) ليعدوه طعامًا ليلة الزفاف . وبعد ذلـك إذا أراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوبته تتبعهم جموع كثيرة ، فئة تضرب بالسلاح ، وقوم يلعبون

الحطب ، وجماعة تتسابق على ظهور الخيل ، ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يخالها السامع منبعثة عن متوحشات أفريقيا الجنوبية ، وهذا مع اختلاط الذكور بالإناث والصغار بالكبار ، حتى إذا جاؤوا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها كان دون فتح القاعة التي هي فيها صعوبات أخفها تَمَنُّع أخيها أو خادمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود ، وكذا يرضي جميع خدم أبيها وحاشيته وهذا هو المسمى عندهم (بلصة) . وأما والدة الزوجة فإن كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر على شرط أن تكون مضارعة لكسوة عروسه وإلا ردت إليه وطولب بأثمن منها ، هذا وقبل أن نخرج بالعروس إلى هودج الزفاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها صبيحة اليوم الذي تزف في مسائه إلى وقت الزفاف .

قبيل شروق الشمس من هذا اليوم تأتي الماشطة وتخضب قدمي العروس وكفيها بالحناء على شكل خطوط متقاطعة ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الأخضر مكشوفة الأطراف وليس عليها سوى قميص رقيق محفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقت في الترنمات واللعب ، فإن حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينة والزفاف ، وفي هذا الوقت تخرج نسوة عديدات من أقاربها ويمررن بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبنها ترنمًا ، وكلما مَرَرْنَ بباب منزل وقفن قليلاً فتخرج من فيه من النساء وتقابلهن بالزغاريد ، وعند اجتيازه يخترن من النساء اللاتي في المنزل أجملهن ذاتًا ويدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء فتتقاطر المدعوات أفواجًا إلى بيتها ، وكلما دخلت منهن واحدة وضعت بين ثدييها ما أتت به من النقود وهذا هو المسمى (نقوط) ثم ينصرفن إلى منازلهن بعد العشاء ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس .

عود على بدء ، حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة النارية. ويعلو صوت المغنيات ويشتد رعد الطبول وتنتشر الغوغاء ويتصاعد العفير المنبعث عن حوافر أفراس السباق على وجوه المارة بالموكب وثيابهم . ويزيد صراخ الأطفال الساقطين تحت أرجل الناس من الازدحام إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج فيعرج سائق الجمل

المقل الزوج عن الطريق الموصل إلى البيت وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة فيرجع عن جموحه وتدخل العروس وأثاثها إلى منزل العريس ، وبعد ذلك يأخذ في زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه ، خلا أنه لا يحمل على جمل بل يمشي راجلاً وأمامه المدففون والزامرون ، ولكن بعض الناس الآن (وهم وجهاء البلاد) اتخذوا الذاكرين (أبناء الطرق) بدلاً عن الزامرين والمدففين ، فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخترقون كثيرًا من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلد على غير خشوع وأدب . هذا فضلاً عن كون كثير من النسوة والأطفال يقطعن صفوفهن لشدة الزحام حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها فيجد عندها والدتها واثنتين معها على الأقل غير القابلة فيفترش قميصها ويصلي عليه ركعتين والغالب أن تأديتها تكون على غير وضوء . وإذا نهض إلى فض البكارة مانعته أم عروسه وطلبت منه مبلغًا قبل أن يحل رباط سراويل العروس ، هذا ما يدعى (حل الدكة) وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات وترتفع أصوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على السرعة في إنجاز فض البكارة ويشرحون له كيفية الوصول إلى ذلك ، وإن تراخى ولو قليلاً أخذوا في التنديد بذلك فيفض بكارتها بإصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات، وقد يكون الزوج صغير السن أو مرتجفًا فتنوب القابلة عنه في ذلك (شيء قبيح لا ترتضيه الشريعة ولا يقبله الذوق) وبمجرد خروجه من القاعة تتدفق النار من أفواه البنادق والقربانات ثم تدخل العديد من النساء عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة ويحملنه بين أيديهن ويمررن حول البلدة مرة أو مرتين فرحات راقصات فيعرضنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن في طريقهن هذه العبارات متتابعة بصوت مرتفع : (بيضتي الشاش يا عروسة) ومعناها حبذا بك من عروس لم تدنسي عرض أبويك ، فإن هذا الدم الذي نحمله بين أيدينا يدل على أنك مصونة العرض طاهرة الذيل وكفى أبويك شرفًا بهذا ، وبعد ذلك يحفظن هذا القميص في منزل أبويها لا يسمحن بغسله إلا بعد شهر على الأقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها .

وأما الزوج فإنه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة إليها ثانية إلا قبل الفجر ، ثم مع ذلك يجب أن يبكر في القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنئين طول نهاره وهكذا ثلاثة أيام ، في هذه المدة تأتي إليه الأصحاب من البلدة وغيرها بالنقود كل على قدر ثروته ، أو الأولى يدفع إليه كل واحد قيمة ما أخذ منه في أفراحه السابقة ، وبعد هذا ينتهي الفرح ويذهب كلٌ إلى عمله حتى العروس .

تلك بعض عاداتنا في الأفراح حفظناها حيث ننظرها من النوافذ المطلة على شوارع المدن والبنادر وتمر بين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف و(مصاطبها) يقوم بشعارها الصغير والكبير ولا ينكرها الجاهل والعالم ولا ترى من يزجر النساء على الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ما ينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور وكأنهم لم يعلموا أن فض البكارة بالإصبع وكشف العورة بمحضر من النسوة أمر منكر في الشرع ومستقبح بالعقل ، وأن القابلة تستحق التعزير والتأديب على النظر إلى عورة غيرها ، فضلاً عن أن تزيل هي غشاء البكارة بنفسها ، وكأنهم ذهلوا عما ورد في الشرع وأجمعت عليه الأئمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة ومن يعتقد حل ذلك فيحكم عليه بالكفر حتى لم ينهوا العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء .

وبالجملة فإن كثيرًا من العادات التي شرحناها لك إن لم نقل كلها مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو أصل عقلي بل مصدرها أهواء فاسدة وميول سخيفة شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل وقل في ربوعهم العلم فيفعلون ما تحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبيح والضار .

نعم إننا نعترف بأن كثيرًا من عادات الأفراح السابقة قد درست مراسمها وأن النبلاء في القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئًا فشيئًا ، وأن البعض منهم قد قدر على إزالة معظمها إذا أقام فرحًا في بيته ، ولكن ذلك التقليل وهذا التهذيب لا يكفي بالنسبة لحالتنا الراهنة فإن قطرنا الآن يحسب في عدد البلاد المتمدنة لا سيما وقد ملأه الأغراب والسائحون من الأمم العريقة في التمدن ، فمن العار أن يرونا مساوين في العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم حكم شرعية ولم يشموا رائحة المعارف ولم تنر

بصائرهم أشعة العلم فيرموننا بالجهل وينظرون إلينا مستهزئين ونحن لا نقوى على رد دعواهم لكونهم ينطقون عن معاينة ، وأما تنزه أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنوانًا لإقليم يحتوي على الملايين من الناس، على أنهم وإن خلعوا بعض هذه العادات لكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم الإسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيمة فيما لا يعود بطائل ، مع أن تلك النقود الوافرة لو حفظت للعروسين لكانت رأس مال يضمن لهما حسن المعيشة إن أحسنا فيه التصرف ، فهذه العوائد الجديدة ليست أقل في الفساد من تلك العادات الوحشية ، أصلح الله حالتنا ، آمين .

obeikan.com

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق :

(أ) دار الوثائق القومية :

- الداخلية ، عربي ، أوامر (1) 1275هـ .
- دفتر أنظمة ولوائح رقم 1891 .
- محافظ أبحاث ، محفظة رقم 149 ملف تراجم البراءات التركية .

(ب) دار المحفوظات العمومية :

- ملف رفاعة الطهطاوي .
- وثيقة محررة بخطه وموقعة منه ومختومة بخاتمه بتاريخ شوال 1255هـ .

ثانيًا : المصادر والمراجع العربية :

(1) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، جـ1 ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب 1994 .

(2) إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر ، ترجمة عدلي طاهر نور – القاهرة – الأنجلو المصرية 1950م .

(3) جلال أمين : ماذا حدث للمصريين . تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945 – 1955 ، القاهرة ، مكتبة الأسرة 1999 .

(4) صوفيا لين بول : حريم محمد علي باشا – ترجمة عزة كرارة ، القاهرة ، سطور ، 1999 .

(5) عامر العقاد : أحمد أمين حياته وآدابه ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1971 .

(6) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جـ4 ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، 1322هـ .

(7) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة 2001م .

(8) عبد المنعم الجميعي : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في العصر الحديث ، القاهرة ، مكتبة الصفا والمروة 1996م .

(9) علماء الحملة الفرنسية : موسوعة تاريخ مصر – المصريون المحدثون ، جـ1 ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، 2002م .

(10) فكري أباظة : الضاحك الباكي ، القاهرة ، دار الهلال ، 1933 .
(11) محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، 1972 .
(12) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، 1902م .
(13) محمد كامل جمعة : حافظ إبراهيم ، القاهرة ، 1958 .
(14) وينيفريد بلاكمان : الناس في صعيد مصر – العادات والتقاليد – ترجمة أحمد محمود ، القاهرة ، عين للدراسات والنشر ، 2000م .
(15) يعقوب لانداو وآخرون : تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1517 – 1914 ترجمة جمال الرفاعي وأحمد حماد ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 .

ثالثًا : المصادر الأجنبية :

- Lanel Edward: The Manners and Customs of Modern Egyptians, London, 1923.

رابعًا : رسائل جامعية غير منشورة :

– رشاد رمضان عبد السلام ، النشاط اليهودي في مصر 1897 – 1922 رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، 2002 .

خامسًا : الدوريات :

– الهلال عدد سبتمبر 2002 .

obeikan.com